الفصل الثانى
العرب والعبريون فى التاريخ

من نسل إبراهيم كانت العرب العدنانية التى تمثّلت بطون العرب الأخرى وصهرتها فى بوتقتها ومن ذريته كان العبريون الذين تمثلتهم على مرّ التاريخ شعوب عديدة وصهرتهم فى بوتقتها حتى لم يعد يربطهم باليهود القدامى غير الديانة اليهودية وأسفار التوراة .

ففى المتناثر من الروايات أن العرب ينتهى نسبهم كما ينتهى نسب العبريين إلى سام بن نوح وإلى سام بن نوح نسب « شلوتسر »[1] هذه المجموعة من الشعوب التى أطلق عليها اسم الشعوب السامية والتى يرى الدكتور جواد على أن يطلق عليها اسم الشعوب العربية بدلاً من السامية لدلالة هذا المصطلح ودقته العلمية فى التعريف بها[2] .

فالسامية مصطلح حديث قد سبقه إلى الوجود مصطلح العربية وهو الاسم الذى عمّ وشاع للدلالة على هذه الشعوب التى ينتهى نسبها إلى سام بن نوح إذا أخذنا برواية التوراة أو التى كانت تتكلم لغات أو لهجات يبدو أنها مشتقة من أصل واحد إذا أخذنا بطرائق البحث العلمى فى الاستقراء والتعريف .

وقد أدى استعمال هذا المصطلح - مصطلح السامية - إلى خطأ وقع

---

(١) 1 — August Ludwig Schlozer.

(٢) جواد على . الفصل الثالث من الجزء الأول .

فيه علماء الأجناس حين تكلموا عن السامية كجنس له خصائصه ومميزاته البدائية وأخذوا يفرّقون بينه وبين الجنس الآرى على هذا الاعتبار بينما أن شلوتسر لم يقصد ذلك مطلقًا بل كان يعنى به شعوبًا تتكلم لغات متقاربة تنتهى إلى أصل لغوى واحد كما تنتهى اللغات الأوربية الحديثة إلى اللغة اللاتينية ، وسواء اعتبرنا السامية دلالة لغويةً أو جنسية فمن المسلم به أن نسبتها إلى سام بن نوح يعنى أن هذه الشعوب تنتهى نسبًا إليه أما إذا فضلنا أن ننسبها إلى مهدها وهو الجزيرة العربية فنقول الشعوب العربية بدلاً من الشعوب السامية ، فمعنى ذلك أننا نأخذها بالنسبة إلى وطنها الأصلى ولا نشذّ عن المتعارف والمتداول منذ ألفى عام حتى الآن حين أخذ لفظ عربى وعربية يعمّ ويطوى ما عداه من أسماء الشعوب والقبائل التى عاشت فى الجزيرة العربية أوفى الهلال الخصيب وأصبح علمًا على قومية متميزة بلغتها وسماتها العقلية والبيئية وقدر لهذه القومية بعد حقبة امتدت إلى ألف عام منذ بدأ لفظ عربى يعمّ ويشيع أن تتأصل وتمتد إلى رحاب أبعد مدى من الجزيرة العربية والهلال الخصيب حين بدأت موجة الفتوح العربية والإسلامية تكتسح ما أمامها من سدود وحدود فتتوطن قبائل عربية بأكملها بقاعًا جديدة فى شمال أفريقيا وتصبح تلك الساحة من بلاد الرافدين إلى شواطئ الأقيانوس وطن العرب وأرض العروبة .

وتهدينا هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ظلّت مطوية فى غمار الجهل وهى أن هذه الشعوب التى أطلق عليها اصطلاحًا اسم الشعوب السامية كالأشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والكلدانيين والعبريين والمصريين ليست فى الأصل إلاّ سلالة واحدة هى السلالة العربية لها سماتها الجنسية والحضارية المشتركة إن تباينت قليلاً أو كثيرًا فلتباين البيئات الإقليمية ولدواعى العزلة التى كانت عاملاً هامًا من عوامل الانفصال والتباين ، فهذه العزلة الإقليمية هى التى تحمل على

الظنّ أن تلك الشعوب العديدة فى مصر والهلال الخصيب هى غير الشعوب العربية التى تقطنها اليوم .

ويكشف لنا هذا عن صفحة مطوية أو مجهولة من صفحات القومية العربية وتطورها على الزمن تطورًا له مقوّماته وسماته المشتركة .

فالعرب إذن هم أصحاب هذه الساحة الواحدة التى تعرف بالوطن العربى أو وطن الأمة العربية منذ أبعد عصور التاريخ .

والعربية هى اللغة الكبرى التى تتمثل المجموعة اللغوية السامية قديمة كانت أم حديثة وهى أوسع لغة سامية باقية على وجه الأرض .

أما العبريون فهم جيران العرب وأبناء عمومتهم الأقربون ، ففلسطين أقرب بقاع الهلال الخصيب إلى الجزيرة العربية وإن كانت الجزيرة العربية والهلال الخصيب إقليمًا جغرافيًا واحدًا ، فأرض الرافدين والبادية ليست إلّا امتدادًا طبيعيًا لجزيرة العرب ، وهم أقرب الشعوب نسبًا إلى العرب ، كما أظهر البحث العلمى الحديث أن أصول الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى .

وإذا جارينا التوراة فى رواية الأنساب لقلنا إن العرب والعبريين هم على رأيها من سلالة سام بن نوح وهو ما يعنينا فى بحثنا هذا عن نبوءات التوراة ودعوى اليهود فى فلسطين أو ادعاء أرض الميعاد .

وتعترف التوراة[1] بنسبة العرب القحطانية إلى سام بن نوح فهم أبناء يقطان بن عامر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهم بذلك أقدم عهدًا من الإسرائيليين كما تعترف بأن إسمعيل جدّ الإسماعيليين هو الابن الأكبر لإبراهيم من هاجر المصرية ومن نسل إسمعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق ولده من سارة كان بنو إسرائيل . وكان القحطانيون

---

(١) تكوين ١٠ : ٢١ - ٣١ .

أصحاب حضارة ومدنية يعيشون فى المدن فى الوقت الذى كان فيه الإسرائيليون بدوًا أعرابًا يتجوّلون فى البادية قبل أن يستقر بهم الترحال فى فلسطين ويعيشوا على فلاحة الأرض .

وتذكر التوراة[1] زوجةً لإبراهيم دعتها قطورة تزوّجها بعد وفاة سارة وولدت له ستّة من البنين هم زمران ويفشان ومدان ومديان ويشباق وشوما ، ومن أبناء يفشان شباوادان ومن أبناء مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع والدعه . وبنوادان هم أشوريم ولطوشيم ولأميم ومن بطون أولاد إبراهيم لقطورة خرج ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية[2] وليس لهذه القبائل ذكر عند النسابين ولم يرد عنها شىء فى بحوث المستشرقين وعلماء التوراة إلّا أننا نستطيع أن نقول إن قبيلة مدين التى أصهر إليها موسى هى من ولد مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة .

وينتهى نسب إبراهيم الجدّ الأعلى للعرب العدنانية ولبنى إسرائيل إلى سام فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح ويكون عابر آخر جدّ تتلاقى فيه القحطانية والعدنانية وبعد عابر ينفصلان فمن يقطان ولد عابر ينحدر القحطانيون ومن فالج ولد عابر ينحدر العدنانيون على ما يقول النسابون وتجرى رواية التوراة .

وإبراهيم أو أبرام أحد إخوة ثلاثة من أبيهم تارح هم غير أبرام – ناحور وحاران – ولد فى أور الكلدانيين فى جنوب العراق لألفى عام ق.م – على ما يقال – وينتمى آل إبراهيم إلى عشيرة بدوية انحدرت من الجزيرة العربية وأخذت تتنقل شمالاً وجنوبًا لفترة من الزمن

---

(١) ٢٥ : ١ – ٤ .

(٢) Hitti : History of The Arabs : P. 40.

فى أرض حاران شمال العراق [1] وفى التوراة أن تارح نزح بأبرام ولوط ابن حاران وسارای كنته امرأة ابنه إبراهيم من أور يريد أرض كنعان فعرجوا على حاران وأقاموا بها وفى حاران مات تارح عن مائتى وخمس سنين من عمره[2] .

ومن حاران نزح أبرام بأمر الرب إلى أرض كنعان ومعه ذخائره وعبيده وماشيته واختار مقامه من شكيم إلى بلوطة ممرا حيث تقوم مدينة نابلس الآن[3] ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت آيل ونصب خيمته وله بيت آيل من المغرب وعاى من المشرق[4] . ثم كانت مجاعة فارتحل إلى مصر وحلّ بها زمنًا ثم ارتحل عنها عائدًا إلى حيث أقام خيمته بين بيت آيل وعاى وكان برفقته لوط ابن أخيه حاران الذى صحبه إلى مصر . وشاء أبرام أن يفترق عن لوط فترك له الخيار فى الأرض التى يسكنها « إذا ذهبت شمالا فأنا يمينًا وإن يمينًا فأنا شمالاً » وارتحل لوط شرقًا ونقل خيامه إلى حبرون عند بلوطات ممرا حيث أقام مذبحًا للرب [5] .

ولا ندرى أكانت تتغير أرض الميعاد فيما لو اختار لوط الرحيل غربًا وأقام فى أرض كنعان وترك الشرق لأبرام أم أن الأرض المقدسة هى كلّ ما انتجع أبرام وذووه سواء كانت له أو للوط فإنا نجد أبرام يتشفّع لأهل سدوم لمقام لوط بينهم « فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسون بارًّا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت

---

(١) Learsi Rufus : Israel. P. 3.

(٢) تكوين ١١ : ٢٧ - ٣٢ .

(٣) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٨ هامش .

(٤) تكوين ١٢ : ٥ - ٨ .

(٥) تكوين ١٣ : ٨ - ١٣ - وحبرون هى الخليل الحالية .

البارّ مع الأثيم فيكون البار كالأثيم»[1] .

ثم نجد موسى يحذّر قومه من العدوان على أرض أدوم فى خروجهم إلى أرض كنعان « أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثًا»[2] .

ولما لم تلد سارای دفعت زوجها أبرام للدخول بجاريتها المصرية هاجر فولدت له إسمعيل فكان أكبر أبنائه رزق به وقد بلغ من العمر ستًا وثمانين سنة ، وفى التاسعة والتسعين من عمره وكان إسمعيل ابن ثلاث عشرة سنة عقد الرب مع أبرام عهد الختان وفيه دعى بإبراهيم ودعيت سارای بسارة وبشر بابنه إسحق من سارة واختتن إبراهيم وجميع آل بيته من ذكر وليد البيت والمبتاع بفضة وكان إسمعيل أوّل من ختن من نسل إبراهيم[3]

وانتقل إبراهيم من مقامه جنوبًا وأقام بين قادش وشور وتغرب فى جرار[4] وولدت سارة إسحق وقد أوفى إبراهيم على المائة وختن إسحق ابن ثمانية أيام[5] .

وغضبت سارة على هاجر « فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى إسحق فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم »[6] .

---

(١) تكوين ١٨ : ٢٣ - ٣٣ .
(٢) تثنية ٣ : ٤ - ٥ .
(٣) تكوين ١٧ : ٢٣ - ٢٧ .
(٤) تكوين ٢٠ : ١ .
(٥) تكوين ٢١ : ٢ - ٤ .
(٦) تكوين ٢١ : ٩ - ١١ .

« وقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك[1] .

فبكّر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت فى برية بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى واحملى الغلام وشدّى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران وأخذت أمه له زوجة من أرض مصر[2] .

ولم تعرض التوراة لذكر إسمعيل بعد ذلك إلّا فى موضعين حين ذكرت وفاة إبراهيم فدفنه ابناه إسحق وإسمعيل[3] . وحين ذكرت بنى إسمعيل بأسمائهم حسب مواليدهم « نبايوت بكر إسمعيل وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمة . هؤلاء هم بنو إسمعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنى عشر رئيسًا حسب قبائلهم »[4] .

---

(١) تكوين ٢١ : ١٢ - ١٣ .
(٢) تكوين ٢١ : ١٤ - ٢١ .
(٣) تكوين ٢٥ : ٨ - ٩ .
(٤) تكوين ٢٥ : ١٢ - ١٦ .

ولا نحب أن نعرض لرواية التوراة عن الأرض التى نزلت هاجر بابنها إسمعيل ولا عن زوجه المصرية التى زوجته أمه هاجر فإن القرآن والتاريخ يقصّ من أمرهما ما يختلف فى تفاصيله مع رواية التوراة فإن إبراهيم قد خلف هاجر وولدها فى واد يبعد كثيرًا عن برية بئر سبع نحو الجنوب وكان نبع زمزم فى ذلك الوادى البعيد ولكن هل كانت برية بئر سبع تمتد حينذاك فتشمل كل بلاد العرب الشمالية ؟ وليس فى ذلك غرابة إذ أن برية بئر سبع هى الامتداد الطبيعى نحو الشمال للصحراء العربية وفى هذا الطريق المار بمكة وبرية بئر سبع كانت ترتحل قوافل التجارة بين الشمال والجنوب .

ومن ولد إسمعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق كان بنو إسرائيل وقد ولد لإسحق توءمان « خرج الأوّل أحمر كله كفروة شعر الرأس فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب[1] .

ونال يعقوب بركة أبيه إسحق دون أخيه عيسو . وارتحل يعقوب إلى فدان آرام بالعراق ليتزوج من بنى خؤولته وفى عودته من العراق بعد عشرين عامًا وفى بعض وحدته خرج عليه إنسان « وصارعه حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت »[2] .

وأصبح يعقوب يدعى إسرائيل فكانت نسبة بنى إسرائيل إليه

---

(١) تكوين ٢٥ : ٢٥ - ٢٦ .

(٢) تكوين ٣٢ : ٢٤ - ٢٨ .

ومسماهم بعد ذلك . أما عيسو فأصهر إلى بنى إسمعيل وأخذ محلة بنت إسمعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجةً له على نسائه ، ومن نسل عيسو كان الأدوميون سكان جبل سعير شرقى العربة التى سميت بأدوم[1] .

فإبراهيم إذن هو الجد الأعلى للإسماعيليين والقطوريين والإسرائيليين وقد نزح إبراهيم كما قلنا من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان فدعى بالعبرى أى الذى جاء عبر الفرات[2] ودعى آله بالعبريين ، وفى تعليل آخر أن عبرى معناها ساكن البادية أو الصحراء[3] وجاءت فى مدوّنات تل العمارنة بمعنى القبائل الرحل وكان منها من يحترف الجندية ويصبح من الجنود المرتزقة[4] .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العبريين هم أحد الفروع العربية التى نزحت إلى الهلال الخصيب فى أزمنة متفاوتة وأن نسب كل من هذه الفروع العربية النازحة التى استقرت وتحضرت إلى أقرب آبائها أو للمناسبة التى نزحت فيها أو للمدينة التى سكنتها فعرفوابهذه الأسماء العديدة التى تطالعنا للقبائل والشعوب العربية فى الهلال الخصيب أو فى الجزيرة العربية ذاتها فإن هذا لا يغير من حقيقة أنها كلها تنتسب إلى أصل واحد وأنها انحدرت جميعًا من الجزيرة العربية ، وإن لم يطلق عليها مسمّى عرب فلأن كلمة عرب لم تكن تطلق إلاّ على الأعراب أو سكان البادية ، ولو كانت تطلق بالمعنى الشامل الذى تطلق به الآن لعرفت هذه الشعوب كلها كما تعرف اليوم باسم العرب ولأصبحت كلمة عرب دليلاً على المعنى القومى الذى يراد لها الآن .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ١ - ٥٣ .

(٢) Learsi, Rufus : P.4

(٣) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ .

(٤) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٦٢ .

والعبرى واليهودى كلمتان لا تعنيان أصلاً واحدًا ، فاليهودية نسبة إلى اليهود وتعنى الذين يدينون باليهودية كدين وهى فى الأصل نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أوّل من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم وليس إلى يعقوب الذى سماه ملاك الرب إسرائيل ومن صلبه خرج الأسباط الاثنتى عشرة كل سبط أصبح أصلا لقبيلة من قبائل إسرائيل والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية دينًا كما لا تعنى جنسيةً معينةً ، وقد أطلقها الكنعانيون على إبراهيم وذويه ثم أصبحت تعنى من يدين باليهودية كما تعنى اللغة التى يتكلمها الإسرائيليون ، إلّا أن اللغة العبرية لم تكن فى الأصل لغة إبراهيم بل كانت لغة الكنعانيين . فقد كان إبراهيم يتكلم لغة يقال إنها السريانية حتى غدت العبرية لغة اليهود مقدسة تثير فى نفوسهم من ذكريات الماضى البعيد ما تثيره أرض الميعاد وأورشليم والمعبد فيحفظون تراثها ويحيون آدابها ويربطون بينها وبين ماضيهم ويصبح إحياء اللغة العبرية كالعودة إلى أرض الميعاد أمل اليهود المقدس ولبّ الدعوة الصهيونية فى خرافة القومية اليهودية .

فالعرب والعبريون أبناء عمومة ينحدرون من صلب واحد صلب سام بن نوح ومن صلب إبراهيم وأبنائه انحدرت شعوب عربية كثيرة كما انحدر بنو إسرائيل أحفاد يعقوب .

وما يجرى على إسرائيل من وعود الرب يجرى على غيرهم من أبنائه وأحفاده فإذا تحيّف اليهود على التوراة وقصروا وعود الرب عليهم فهو اجتراء على تفسير الوعود بغير ما قصدت ومارمت إليه وإذا كان لبنى إسرائيل ميزة على أبناء عمومتهم العرب فهى الميزة التى كانت لسارة ولولدها إسحق لدى إبراهيم وهى الميزة التى اغتصبها يعقوب وكانت حقًا لعيسو عند أبيهما إسحق فقد كان فى نية إسحق أن يخلف ابنه عيسو وكان يؤثره على يعقوب ولكن حب أمهما ليعقوب جعلها تحتال له لينال بركة أبيه

بدل عيسو . ونرى أن المرأة لعبت دورها فى كلا الحالين على غير هوى الرجل فسارة هى التى حملت إبراهيم على طرد هاجر وابنها إسمعيل ، ورفقة زوجة إسحق هى صاحبة الحيلة التى احتال بها يعقوب على أبيه والإيثار كان لحمل الدعوة والسير بالنبوة ولم يكن إيثارًا بالإرث والملك والزعامة .